خمس دورات

بقلم : على حسين خلف

صرخ أحمد وهو يركض فوق ساحة مفروشة بالاشـــواك ، مخلوطة بحصى الرمل ، حافى القدمين ، وسوط جلاده «حاييم» يمزق لحم ظهره ليتابع الركض بسرعة. الساحة ملطخة بالدم من أقدام الفدائيين والمناضلين العرب ، والشوك الاحمر تقصف أطرافه لكثرة ما لسع من أقدام رجال . هذه أول مرة يسير فيها أحمد تحت السياط ، وفوق الشـوك والحصى المزركشة بالاحمر والابيض . أطراف الشـــوك تغوص فى قدميـــه فيصرخ ، وتتأرجح الصور أمام عينيـه .. أمه تشق الصور البـــاهتة وتظهر والى جانبها أبوه يرجـــوه أن يكف عن فكرة الالتحاق بالثورة «فللمعركة رجال غيره ! » ، وتوسلات زوجتـه العاتبة ، ونظرات صغار ثلاثة بريئة تتمسح به، رفض طلبات الجميع وصرخ فى وجوههم:

ـ حب الوطن أقدس من حب الأمومة، تريدون أن أتخلف ؟ ولم لا يتخلف كل رجل فى مثل سنى ! اذن لضـــاعت الثورة .. لا ، لا سألتحق بالثورة رغم أنوفكم .

أصوات نشيجهم تصفعه وهو يغادر المكان ، ولعنات أمه ! وتهديدات والده بالتخلى عنه ، اسطوانات ما قبل الميلاد بالنســـبة له ان كانت فى ذلك الزمن اسطوانات !

ويدور أحمد الدورة الثانية ودموعه تسح على خديه وفمه مسترخ فلم يعد قادرا على الصراخ . الشوك والساحة والجلاد والســـوط .. ينتزعونه من واقعه ، يرمونه بعيدا ، حيث لا ساحة ولا شوك ولا جلاد ... الى « ســـاحة المفخرة » حيث وقفت جموع من الناس غفيرة تنتظر الباص ، والرذاذ يتساقط باستمرار . رياح تشرين تصفع وجهه بشدة وهو يصعد « باص بلد الشـيخ رقم (١) » ، ويأخذ مكانه بصـــعوبة لازدحام الركاب ، ثم جلس وأشـــعل سيجارة ، ويده اليمنى تحت (كبوته) الثقيل تتحسس شيئا ما. وتطاير دخان سيجارته وتكثف مما أزعج السيدة التى بجانبه والتى طلبت منه أن ينفث الدخان بعيدا عنها لانها تكره الدخان والمدخنين!

مد يده من الشـــباك وألقى بعقب السيجارة فتنفست المرأة الصـــعداء ، وهو ينزل أمام جامع الاستقلال ، وبعد أن أدى فريضة العشاء ، فضل أن يسير

على قدميه وخاصة أن السماء كفت عن المطر ، وحركة الرياح خفت قليلا،فقطع ما تبقى من شارع (جسر رشميا) ثم انعطف الى شارع فرعى ، فاذا به امام (مركز بوليس الحسبة) والجنـــود يتبخترون بالبستهم الســـوداء حاملى الاسلحة سريعة الطلقات .

لم يلتفت كثيرا وهو يذرع شـــارع (وادى النسانيس) ، واخذ يســـير الهوينى ، لان الطقس استهواه ، فكان صـــيفا ، تلك التى وافقت مولده حتى شبابه ، لم تظهر بمثل هذه الروعةالتى تتجلى فيهـا الآن ، والاضواء الـكهربية تتكسر فى برك الماء الصغيرة والمتجمعة فى الشارع .

وقف للحظة ، وارتفعت دقات قلبه وهو يستجمع شـــتات أفكاره ويتمتم لنفسه : (العملية فى غاية الصعوبة)، ثم يتحســـس ما فى ســـترته تحت (الكبوت) ويتمتم : « الاعمار بيـــد الله ! » . ولكن هواجسه لم تتخل عنه، افكاره تضطرب ، الحوادث المرعبة تمر كشريطمسجل ، انه يذكرحادثةالقوات العربية الفلسطينية حين طوقت هـــذا الذى ســـيراه ، فى مستعمرة (كفارى خيسكل) .

« أبو دره ورجاله بقيادة خليـــل المصرى عجزوا عنقتله فكيف بى أنا !؟» قال لنفسه ثم استطرد :

« سأتوكل وأقوم بمهمتى ... لن يكون أشد حرصا من (يوسف تلحى) سيذوق مصيره » .

واندفع الدم الحـــار فى عروقه ، وهو يجتاز (ساحة الحناتير) ، ها هو يصل ، لم يبق أمامه الا بضعة أمتار ، ويدخل بعدها مقهى (مشيل)اليهودى. هذه الامتـــار القليلة تحمل ضعف ما تحمله من السير مســـافة الكيلومترات السابقة ، ها هى الانوار تشع من مقهى مشيل فحدث نفسه :

« وليكن الطوفان .. لمالخوف ؟.. الانسان يموت ميتة واحدة » ثم دلف الى الداخل .

عيناه ترقبان البـــاب باهتمام زائد والدم يتفجر بركانا فى عروقه لا بسبب الحمـــاس فقط وانما بسبب الخوف ايضا ، فهذه أول مرة يقوم فيها بمثل هذا الدور منذ أن خرج من السجن قبل سنة تقريبا ، وعلى أثر محاولة لقتـــل (دافيد بوم) قائد قوات لواء جلبوع. الدقائق تتمـــرغ بطيئة قبل أن تموت وضجيج لاعبى (الشدة) يتزايد وهو فريسة القلق ، ثم ظهر (مروخاى) ببزته العسكرية وجسمه الضخم الذى يشبه البغل الى حد ما ، وجلس عـــلى الطاولة المحاذية له فابتسم ابتســـامة الانتصار .

سيطرت الخمرة على مروخاى فقـــد احتسى خمسة كؤوس من الويسكى ، ولم يعـــد قادرا على التمييز أو التفكير الواعى ، فاستغل أحمد هذه الفرصـــة وانتقل من طاولتـــه الى طاولة مروخاى واخذ يلاطفه فى الحديث فسر مروخاى كثيرا وتمنى أن يلتقى به كل ليلة !

حلأحمد بنود (كبوته) فغطى بذلك أطراف الطاولة وسمح لنفســـه بيسر وسهولة أن يضع القنبلة تحت الطاولة بل تحت مروخاى بالضـــبط ثم بعد أن فرغ من مهمته نهض وحـــاول الخروج فاســـتوقفه مروخاى وأصر على بقـــائه

حتى الثانيـــة عشرة ! الدقائق تمر ، واحمد يكاد يفقد السيطرة على نفســه وينوى الهرب أمام الجميـــع ، دقائق معـدودات ثم تثور القنبلة ، ومروخاى يقول بلهجة السكارى :

ـ ما دمت مصرا عـــلى الذهاب ·· سآتى معك ·

ـ لا ·· لا ابق هنا سأعود انا بعد لحظات ·

فقال مروخاى مقهقهـــا : دعك من المواعيد ·· ولتحتس كأسا من الخمرة فهو يساوى كل الذين ستقابلهم ·

فعقد أحمد ما بين حاجبيه وارتسمت دلائل الخوف على وجهه ، وذعرا قائلا يموج فى عينيه فتظاهر باللامبالاةوقال بشىء من الرضى :

ـ اقسم لك بشرفى أننى لن اتاخـر كثيرا ·

وأخذ يبتعد تدريجيا ومروخاىيرجوه أن يبقى ، وثوان معدودات باقية تسرع فى السير · أحمد يفرك يديه خائفـا غاضبا ، وهو يتراجع باستمرار ، يكاد يصرخ ·· وانفجرت القنبـــلة وطار مروخاوى !

ويدور أحمد الدورة الثالثة باعيـاء شديد ، اذ تصلب الدمع فى عينيه فلم يعد يقوى على الانهمـــار ، وجف ريقه فتقلصت شفتاه وبلل الدم قميصه من سياط الجلاد · الشوك لم يعد يغوص فى قدميه لعدم وجـــود فراغ فيهما ، الساحة تدور أمامعينيه ، وبصرهالزائغ يمزق شعر لحية الجلاد · ووقع بصره الحائر على باب الساحة حيث قدم قبل دقائق من غرفة التعـــذيب ·· هو ، جالس على أرض الغـــــرفة الفسيحة ، ورائحة فضلات الخيول تعبق جو الغرفة، والحديد يعض بساقيه ويديه ، فاحس بالقيد فى كل شىء الا بشعرلحيته الذى أجيزت له الحرية ·

الجـلاد يهوى على وجهه صـــارخا بحشرجة : أين الثوار ؟فيقابله ـ أحمد برد خافت : فى المعركة · فيحملق به ويلطمه لطمات متوالية يقطعها بسبابه: ابن الـكلب ·· ابن الحيوان ·· ابن الـ ···

وينخشه بسكين صغير فى صدره ، نزف الدم على أثرهـــا ، فتقدم الخبير المكلف بتعـــذيبه وطلب من الجلاد أن يتوقف وينصرف ، وبعد أن خرج قال لأحمد ـ بعد ملاطفة قصيرة ـ : « لقـد أســـانا فهمك ·· اعذرنا ·· التعذيب لا يجدى نفعا ·· ما دمت اسيرا عندنا فمن الخير أن تفكربالطريقة التىتريحك ·· سنطلق سراحكاذا اخبرتنا بأماكن الثوار ·· أما النقود فهاهى المئاتمنها ·· ثم ما شأنك أنت بالثورة ·· أنت شاب عليه أنيمتع شبابه ، لا أنيضيعه بين الجبال ·· وسنزوجك بمنتريد·· ولكنك لن تحصـــل على شىء اذا بقيت عنيدا مصرا على الانكار ·· ما رأيك ؟»

فاجابه بابتسامة صفراء ، وهزة من رأسه تعنى الرفض ·

ـ يا صديقي فكر جيدا سأتركك الى الغد ·

وعاد فى الغد ليرى ماالنتيجة فصدمه جواب أحمد بجـرأته : « الدراهم ·· يا صديقى النصوح لن تمنحنى وطنـا أعيش فيه بحرية ·· وامتـــاع نفسى بمجتمع دنس مثل مجتمعكم لهو حقارة

اعجب كيف تسألني عنها ، أما خيانة الثـــورة فهذا مستحيل لو قطعت اربا اربا » ٠

فحدق به غاضـــبا وقال بحزم : « حســـنا ٠٠ ما دمت كذلك فسأريك العذاب » ٠

وتتوالى هزات أحمـــد فوق الكرسى الـكهربى دون جدوى وهو يكاد لا يرى شيئا من تورم وجهه اثر الكدمات الكثيرة حتى كادت عيناه أن تختفيا ، فيصرخ الخبير من جديد : « جهز لى الســـاحة بالشوك والحصى » ٠

وتنتهى الدورة الثالثة فيحـاول أن يدور الرابعة ، وبقية من عزم تبقيـــه واقفا يترنح وصور بطولته تظهر بأبهى رونق ـ ٠٠ هجومه على مستعمرة (كفر ناحوم) وقتله قائدها ثم مشاركته فى حصار مســـتعمرة (مشمارهاعيمك) ومدفعه الهاون يقذف باتجاهها صـور زاهية تشجعه ولكن الى حين ٠

الدورة الخامسة بدأت كزحف النمل ، والسياط لم تعد تتهاوى على جسده اذ لم يبق فيه مكان غير مبلل بالدم٠ صوت الجـــلاد : هل تعترف ؟ اذا اعترفت ساوقف العذاب ٠ لا يحمل جوابا فلم يعد يســـتطيع الاجابة ٠ طفلاه خالد وابراهيم يشقان حجب الصمت والشوك والسياط ، ويتمثلان أمامه بضـــحكة بريئة ، وعلى عكس هـذه الصورة كان حال زوجته ، عيـــون كالدم من كثرة البكاء ، وثوب قديم حدادا عليه ، صور متباينة تتصادم ، امه طريحة الفراش، وابوه لا يعرف الا عصاه ، مسئول عن حطام هذه الأسرة ، أرضـهم تلك التى اضطر والداه الى بيعها ، صور حيـاته تمر أمامه كشاشة سينما ، وصـــوت الجلاد يرتفع بغضب شـــديد : هل تعترف ؟ وهو يوالى الزحف ٠

صوت الجلاد يصرخ من جـــديد : ساطلق النار اذا لم تتكلم ٠ وأحمد يكاد أن يتهاوى من شدة الاعيـاء ، ثم تكوم جسدا بلا حـراك اثر طلقات ثلاث من فوهة مسدس الجلاد ٠